

جميل جبر يوم نعود اليه

في بال النهضة وفي ذاكرة لبنان

كنت لا أزال في يفاعه العمر ويفاعه الكلمة عندما شدني الشغف بالجديد والمفيد، بالعريق والأصيل، الى مواكبة قلم استوقفني واستهواني ، وجعل بينه وبينني أواصر ودّ وقراباتٍ أدبية وروحيّة ... فهو مثالي ثقافي حين كنت ولا أزال أطوفُ في المدائن بحثاً عن ثقافة المعارف وفي الأرياف بحثاً عن ثقافة الأعالى ... وهو خصّ والدي أوان غيابه منذ خمسين عاماً ويزيد بشذرة حبيبة من الشذرات نشرها في جريدة "الجريدة" فكانت، مع مثيلاتها، بلسماً للعائلة المفجوعة وللقتى المكسور الجناح . وأقول معتزلاً وشاكراً إنّه لم يدع مناسبة مميّزة تخصني إلاّ وكلاها بوافر محبته ونبيل مبادرته . وهو إذا قصدت موائده العلمية قدّم لك الزاد ثلّو الزاد . وإذا رغبت في كتاب من توقيعه قدّم لك مكتبة . وإذا نشدت انفتاحاً كان صدرأ مشرعاً وأفقاً . وإنّ أملت بلبنان ملمة كان غضبةً وسيفاً . وله في الحرّية مواقف ولطائف . عام ٢٠٠٢، يوم تكريمه في قاعة الأونيسكو الكبرى ، توجّهت اليه بالقول : "وفي علامة (من علاماتك) أنّك ما بارحت الحرّية يوماً في مواقفك وعطاءاتك . تتشققناها مع أنفاس السلف ، ومنذ ما كانت الأمهات يهزرن الأسرة ويبثثن للأطفال مقداراً من عبير الإباء يمتزج بمقدارٍ آخر من نسائم الدّلال . وتتشققتها هكذا ... وزاد في كثافتها أنّك من بيت شباب ، ومن المتن الذي أطلق الى الناس أعلاماً منورين صلباً أشعلوا النار أيام الصّقيع الفكري في سبيل لبنان ، ووثبة العرب ، ومجد الإنسان ."

الجمعة ٢٣ آب ٢٠١٣، بيت شباب ، في ذكرى الدكتور جميل جبر .

أجل ! ما نسيت بركة من بركات اليد العليا عليه - وعلينا . فهو من بيت شباب ،
شقيقة بسكنتنا في الانتماء الى ثقافة الكرامة ، والى عالم الكلمة ، والى الأبوي المتن ، قلب لبنان ،
وقلعة العنقوان ، وصانع النهضات ، ومصدر العبقريات .

هذا القلم / العلم ... نهز الثقافة هذا ... هذا المعلم يوم كثر المتعلمون وقلّ
المعلمون ... هو جميل جبر ... سلام الله على اسمه وروجه وذكراه وأفراحه وأحزانه وكنوزه
الأدبية وشلال مناقبه العليا .

أعنتم مناسبة ذكراك اليوم ، يا صديقي الدكتور جميل ... يا أخاً كبيراً ويراغاً منوراً...
لأطرح اسئلةً استلهمتها من مسيرتك ومن رؤياك الوطنية فبات الكلام فيها تكريماً وعبرةً وأملاً
منشوداً في بحار الظلمات وغمار الجهليات .

في صدارة الاسئلة : اين النهضة والنهضويون ؟ أين مواكبهم هؤلاء الشاقون في الوعر
مُنْبَسَطاتٍ والمسَلَطون على العتمة الدكناء أضواءً والتائرون ثوراتٍ لا ضيق فيها ولا رُجعى
والحافظون للغة والإبداع حُرَمات ؟ هل مَضَى زمنهم بمضَيّ أمثالك ، وهل خَلَّت السَّاح
للمسَطح والثرثار والأفاقِ وباعةِ الكلام والعاثين بالتراث وقليلي الإيمان بسلطة الكلمة ؟ .

كيانُ لبنان أبعدُ من صُدْفِ تاريخيَّةِ وخطوطِ جغرافيَّةِ . إنَّه تعاقبُ نهضاتٍ وتراكمِ إبداعاتٍ . حمَاهُ القلمُ وعَلَاهُ قبلُ أن يحميه حُماةُ آخرون . بهذا آمنت ولأجله بذلت ، فكنت لبنانياً كبيراً بسلطة الكلمة ، وبتأجيجِ نارِ النَّهْضَةِ .

وفي صدارةِ الأسئلةِ ايضاً : اينِ الوطنيَّةُ والوطنيون ؟ أمَّا شقُّ عليك أن تصيرَ الأرضُ قصاصاتٍ وأن تجتاحها جائحةُ العصبِيَّاتِ وتصبحِ المواطنةُ مصطلحاً قاموسياً وهملاً منسياً وتضيَّقَ الصدورُ واحداً بالآخر ، ويمسي الآخرُ نقيضاً وعبئاً وعدواً وشرّاً مستطييراً عوضَ ان يكونَ غناك وشريكك وضمفَتَكَ الأخرى واكتمالَ ثقافتك وجزءاً منك ؟

ما تخلَّيتَ يوماً ، أن الحبيبِ لبنان في الصَّحوِّ والطمأنينة ، او في التلبُّدِ والفجيرة ، عن مفهومك المانعِ الجامعِ للمواطنيَّةِ ، فكنتَ لبنانياً كبيراً بشمولِ النظرةِ وحقيقةِ الرسالةِ ووحدةِ الترابِ .

ومن الأسئلةِ ، وأنتَ من الأعزَّةِ الرَّاحِلينِ ، نُساكِ الأدبِ وناشريِ الأطيابِ في الأوراقِ والرُّبى ، وحملةِ المشاعلِ ، والزَّهادِ بأمجادِ الدنيا العُرورِ ، والعاقدينِ أوثقَ العُرى مع اللُغةِ المرمريَّةِ وصحواتِ الفكرِ ... من الأسئلةِ : ماذا رددنا لكم يا أربابِ العطاء ؟ أهنيهاتُ ذكري وتنتهي ؟ أكلامٌ وبتطايرِ كالهباءِ المنثورِ ؟ أمُناسبةٌ ولياقاتُ ؟ ما مِن الشِّيمِ أن تُسدَلَ السِّتارةُ على من كان بَرِّاقاً أو دفاقاً . لبنانِ واحةٍ مبدعينِ . المتنِ واحةٌ في قلبِ الواحةِ . بيتِ شبابِ ريحانةً

في ديار الزياحين . الأصفى والأوفى هم الأدباء والشعراء والفنانون وصنّاع الجمال وعشاق
التراب المقدّس ، والمعلّمون ... جميل جبر واحدٌ منهم . لا تكتفوا بهذه الذكرى . أنشروا أوراقه
ووزّد مناقبه على المفارق والمساحب ومناطق الوجدان ، وحيث للحياة رونقٌ ، وحيث كيانُ
الوطن أبعدُ من اليوميّ والنفعيّ والمحدود والمنغلق والمستهتر . من منا لم يحيَ على مَضَض ،
ولم يرحلُ على غَصَص ، عندما رأى الغالب الأَكْثَرِي من اصحاب الزّمام يتمسّك بالخاص
ويستهتر بالعام . يتمسّك بالسياسيّ العرضي ويستهتر بالوطني . يُصرّ على الشحناء والبغضاء
ويجافي تقاليدنا السمحاء وثقافة المحبّة والسّلام التي ورثناها كابراً عن كابر .

كفى لبنان وكيانه وشبابه استنثاراً واستهتاراً . وكم مرّة سمعتك ثائراً على الرّوائل ومنتصراً
للرواسخ ، وفي طليعتها الحرّية والمحبة والانفتاح .

وإني إذ أثرت ، يا صديقي الكبير ، في عجاله هذه الكلمة ، وهيبه هذا المقام ، ألا
أخوض في تجربتك الأدبية الفدّة متوجّهاً الى رؤياك - ورؤياي - الوطنية ، فلكي أدكّر بأنّه لن
يموت ... الحبيبُ الوطن ... طالما أنّه " ليس من طينٍ وماء " ، بل من روح ، ومن رسالة ،
ومن أصحاب "أقلام روائع" وأحلامٍ شواسع لا يقوى عليها شرٌّ فاغز، وظرفٌ عابز !.

أجل! جميل جبر من أحيّة الوطن الغالي ، وهو وأمثاله سياج من أسياج الكيان .
وعهدنا له أن يظلّ في بال النهضة ، وفي ذاكرة لبنان الذي أحبّ ابناؤه بلا استثناء ولا
تميز! .

ولبنانُ عهدُ ...

ليس أرزاً ، ولا جبلاً ، وماءً

وطني الحبّ ، ليس في الحبّ حقدُ .

غالب غانم